شعراء ما قبل الإسلام في دائرة الموت

الدكتور علي كمال الدين محمد الفهادي
كلية الاداب — جامعة الموصل

ما أن خلق الله الإنسان حتى راودته هموم الموت والبقاء ، وكانت همومه تلك ثغرة تسلل منها الشيطان إلى نفس آدم عليه السلام فأقنعه بعصيان ربه لينال الخلود.قال تعالى : «ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين.فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما رُوي عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الاّ ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين»(١)وقال سبحانه «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (٢) .

وقد ساور القلق الشاعر قبل الإسلام عندما فكر بالموت والفناء ، وكان قلقه باعثاً لقصائد ومقطعات تحدثت عن رحلة الناس إلى وادي الموت من غير رجوع وقد تمثل ذلك في قول عبيد بن الأبرص (٣) :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

والشعراء الذين تحدثوا عن الموت وعن حتميته كثر ، ولكنهم تحدثوا عنه من خارج الدائرة أي أنهم لم يدخلوا في إطار موت محقق — حتى فيما يتعلق بالشعراء الذين تحدثوا عنه وهم في سوح الوغى عند مبارزة الأقران ،لأن أملهم بغلبتهم على الخصوم اكبر من شعورهم باقتراب الأجل — والبحث سيتناول الشعراء الذين دخلوا في دائرة موت أكيد محقق بمقاييسهم الدنيوية وقطعوا أملهم من الحياة أو كادوا في ثلاث مجاميع فمنهم من جرح جراحات بالغة

(١) سورة الاعراف ١٩ — ٢٠ .
(٢) سورة طه ١٢٠ .
(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣ .

قاتلة . فقال الشعر وهو ينزف بقايا دمه ، ومنهم من أسر وحكم عليه بالموت فهو يقول الشعر مرتقباً أجله،وهناك حالات أخرى أدخلت الشاعر في حلقة موت أكيد . فهو يحتضر من مرض عضال ، أو لدغة أفعى ، أو موافاة أجل فشعراء هذه المجاميع الثلاث. قالوا الشعر من محيط دائرة الموت. فكيف كانت اشعارهم تلك ؟ وكيف نظروا للحال التي هم عليها ؟هذا ما يود البحث سبر غوره وكشف خبيئه .

أولاً : شعراء جرحى

شعراء هذه المجموعة من الفرسان الذين عرفوا بالبأس في قبائلهم وبين العرب ومنهم من ضرب به المثل في الفروسية والإقدام ، وقد جرح هؤلاء فقالوا الشعر قبيل موتهم ، فهذا عنترة بن شداد العبسي أغار في أواخر حياته على قوم من طيء فرماه أحدهم بسهم قطع ظهره فتحامل عنترة حتى وصل أهله (٤) ، وقال وهو مجروح (٥) :

وإنّ ابن سلمى فاعلموا عنده دمي ... وهيهات لا يُرجى ابن سلمى ولا دمي
يحل بأكناف الشعاب وينتمي ... مكان الثريا ليس بالمتهضّم
رماني ولم يدهَش بأزرق لهذم ... عشية حلوا بين نعف ومخرم

لم يسعفه الزمن لينهل من شاعريته أكثر من هذه التفة التي وجه فيها جل همه إلى تعيين قاتله بغية الثأر منه ، وسرعان ما يدرك ان دمه قد ضاع ، ربما لعلمه ببأس طيء، وربما لضعف ثقته بعبس التي ذاق منها الويل والأمرين لتعترف بنسبه ، أتراها اليوم تحارب طلباً لثأره؟وإن كان الشاعر قد اشار إلى

(٤) ينظر سياق الخبرفي الأغاني ٢٩٩١/٨ .
(٥) ديوان عنترة بن شداد العبسي ٣١٨ — ٣١٩ ينتمي : يتحصن . ليس بالمتهضم : لا يدرك مكانه فيه .
ازرق : صاف الحديدة مصقول . اللهذم : القاطع — النعف : رأس الجبل . المخرم : الطريف فيه .

منعة القاتل المحتمي فيرأس جبل لا يدرك ويستعير لمنعته ببعد الثريا في السماء منوهاً ببطولة قاتله؛ فقد رماه بسهم دون خوف أو تردد، ولكننا نحس بحزن عنترة وشعوره العميق بالأسى من خلال قوله «وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولا دمي» إنه اليأس من الحياة والحزن على مفارقتها في آن واحد، من غير ان يرثي نفسه أو يؤبنها. بيد ان جريحاً آخر لم يمت على الفراش بين اهله وقومه ولكنه مات على صهوة جواده وقد رهبه الأعداء وهو معصوب الجرح فهابوا ملاحقته وعزفوا عن ملاحقة ظعائنه كراهية للقائه، ففي ديوان حسان بن ثابت نقرأ: «أن بني سليم خرجت غازية بني كنانة فلقيهم ربيعة بن مكدّم الكناني فقتل منهم أربعة نفر، وطعنه بعضهم طعنة جائفة، فانصرف إلى أمه مُنْبتاً فاستسقاها فأبت ان تسقيه. واخذت نصيفاً لها فعصبته على جراحه» (٦) فقال (٧):

شدّي على العَصبِ أم سَيّار فقد رزيت فارساً كالدينار
في وهج الجيش المغير الكرار ذا شوكة يضرب خلف الأدبار

قال ربيعة الشعر ثم وجه الظعن إلى مأمن ووقف على فرسه متكئاً على رمحه قال أبو عمرو بن العلاء: «ولا نعلم ميتاً ولا قتيلا حمى الظعائن غيره» (٨) إن الشاعر جريح ينزف الشعر والدم في مواجهة مع العدو، ولذا كان رجزه قوياً متوتراً، فيه الفخر والتأبين متلاحمان متفاعلان يتوقع لأمه الثكل مشبهاً نفسه بالدينار إشراقة ووضوح مكانه، ويشير إلى مكانه بين الجيش إغارة وكرّاً وقدرة على خرق صفوف العدو وضربه من الخلف، ليس ثمة حديث عن الموت او ذكر للثأر أو القاتل، وليس ثمة أسفٌ على الحياة، لقد كانت

(٦) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ٣٦٣ وينظر الخبر في الأغاني ٥٨٢١/١٦ جأفه، صرعه.
(٧) نفسه ٣٦٤.
(٨) الأغاني ٥٨٢٣/١٦.

فرصة الشاعر للبوح بشعره اقصر من فرصة عنترة ، وكان موقفه أقسى وقعاً وأشد ضراوة ، ولكنه آثر التأبين لأنه قال الشعر وهو يغالب جرحه ليواصل القتال ، وعنترة قال الشعر ليودع الحياة ، واراد ربيعة ان يخلد نفسه بذكر بطولته في الجيش ولم يأبه عنترة لذلك .

إن الجراح التي لم تتح لهذين الفارسين قول المزيد من الشعر قد أطلقت ، قريحة بشر بن أبي خازم الأسدي وأمهلته ليقول قصيدة تربو على أبياتهما فقد رمى غلام الشاعر بسهم في ثديه الأيسر فأثخنه ، وأسر بشر الغلام ثم أيقن في الطريق أنه ميت . فأطلق الغلام ، وقال له : أبلغ قومك انك قتلت بشر بن أبي خازم ، ثم اجتمع اليه اصحابه فقالوا له: أوص. فقال ، هذه القصيدة وهو يجود بنفسه (٩) . وتنتظم القصيدة في عشرين بيتاً يبدؤها بالتساؤل عن ابنته عميرة التي تستطلع أخباره من الجيش وتأمل ان يعود اليها بالنهب والأموال كعادته في كل غارة ، وهي لاتعلم ان هذه الغزوة لم تكن لأبيها بل كانت عليه فأصيب بسهم قاتل . يقول بشر :(١٠)

١ ــ أسائلة عميرة عن أبيها خلال الجيش تَعتَرِفُ الركابا

٢ ــ تُؤمِلُ أن أؤُوب لها بنهب ولم تعلم بأنّ السهم صابا

ثم يصف لابنته بأس قاتله الذي رماه بسهم صائب لايطيش في قلبه وقد وصف عنترة بأس ومنعة قاتله من قبل فأنصفه كما انصف بشر قاتله :

٣ ــ فإن أباكِ قد لاقى غلاماً من الأبناء يلتهب التهابا

٤ ــ وإنّ الوائلي أصاب قلبي بسهم لم يكن يكسى لُغابا (١١)

(٩) ديوان بشر بن ابي خازم الأسدي . مقدمة الديوان ٣٢ ــ ٣٣ وهامش القصيدة ٥ .
(١٠) نفسه ٢٤ ــ ٣٠ تعترف : تسأل عن خبر ، الركاب : الإبل واراد القوم .
(١١) اللغاب : الريش الرديء اذا ريش به السهم طاش .

ويتحدث بشر عن موته وغيابه عن الحياة ويضرب بذلك مثلا بغياب القارظ العنزي الذي ذهب بلا عودة فضربت العرب بطول غيابه المثل ليؤنس ابنته من رجوعه .

٥ — فرجّي الخير وانتظري إيابي إذا ما القارظ العنزي آبا

ثم يحدد مكان قبره باستعارة الباب الذي هو من لوازم البيت ويخبرنا بمكوثه في اللحد ، وأن لابد من الموت ويشعر بالأسى والأسف على غربته وحيداً نائيا غريبا .

٦ — فمن يكَ سائلا عن بيت بشرٍ فإنّ له بجنب التردْهِ بابا (١٢)

٧ — ثوى في مُلحدٍ لابْد منه كفى بالموت نأياً واغترابا

لقد صاغ لنا حزنه بصيغة المثل بقوله (كفى بالموت نأيا واغترابا) فكثف تجربة البشرية بغربة الأموات وما تثيره تلك الغربة من حزن ولوعة في قلوب لأحبة الأحياء ولامس مشاعرنا برفق وعمق فأحيا فيها الأسى والحزن ، والتعاطف معه بلمحته السريعة الخاطفة المتمثلة ببعد المسافة والزمن بين الموت، والحياة . لقد كان الفرزدق وجرير محقين في اعجابهمابهذا البيت فقدّما صاحبه على سائر الشعراء (١٣) .

إن بشراً يرثي نفسه ويأسى لمصيره في قبر موحش بلا أنيس ثم يعزي نفسه بأن كل الفتيان مصيرهم الى البلى والأجل المحتوم ، فلا جرم أن يستفيض دموع ابنته ويؤجج في صدرها النحيب :

٨ — رهين بلىً ، وكلُّ فتىً سيبْلى

فأذري الدمعَ وانتحبي انتحابا

(١) الرده : موضع في بلاد قيس دفن فيه الشاعر .

(١٣٢) العمدة ١/٩٥ — ٩٦ .

ويصوغ لنا مثلا آخر من حتمية الموت يعزي به ابنته ، ولربما يعزي به نفسه أيضاً :

٩ ــ مضى قصد السبيل ، وكلُ حيٍّ
اذا يدعى لميتته أجابا

وينتقل من رثاء نفسه إلى تأبينها، مقدما هذا التأبين لابنته أيضاً ويحاول من خلاله أن يتمسك بالخلود ويتشبث بالبقاء في ذاكرة الناس بعامة وفي ذاكرة قومه وابنته بخاصة ، بما يرسمه في شعره من لبنات بناء الحب العريق.وأول هذه اللبنات قوده الجيوش،فقد لقي جيشا للاعداء يزحف نحوه وقد ملأ السماء غبار خيله ، فبدا كأنه الضباب ، فقابله الشاعر بجيش كأنه ريح الشام اذا حملت السحاب والتحم معه :

١٠ ــ فإن أهلك عُمَيْرَفرب زحف يشبّه نقعُه عَدْواً ضبابا
١١ ــ سموتُ له لألبسهُ بزحف كما لفَّتْ شآميةُ سحابا

وثاني تلك اللبنات امتلاكه فرساً خفيف القوائم سريعاً يتسلل بين الخيل بسرعة فائقة .

١٢ ــ على رِبِذٍ قوائمه اذا ما شأته الخيل ينسرب انسرابا(١٤)

ثم يصف نفسه على ظهر فرس قوي ــ بالثقة والحزم والجلد أمام نكبات الدهر ونوائبه ويؤبن نفسه بالصبر على شدة الحرب واختلاف الرماح وركض العذارى خيفة السبي ، ومهما طال تشاجر الأبطال واستعار الحروب فإنه صبور عند اللقاء .

١٣ ــ شديد الأسر يحمل أريحياً أخاثقة إذا الحدثان نابا

(١٤) شأته الخيل : سبقته . ربذ : خفيف القوائم .

١٤ – صبوراً عند مختلف العوالي اذا ماالحرب أبرزت الكعابا
١٥ – وطال تشاجر الأبطال فيها وأبدت ناجذاً منها ونابا

وتتوالى التشبيهات «النقع بالضباب ، وغبار الزحف بريح الشام والسحاب ويستعير لضراوة الحرب صورة الناقة العضوض» ويتصاعد الغضب في نفسه ويتأجج التحدي لأعدائه ويعتذر بلباقة وكبرياء عن رفضه للموت لأن موعده جاء مبكراً قبل أن يحقق أمانيه ببطولات جديدة يسحق فيها أعداءه من قبائل كعب وكلاب ويلقى خيل الطامعين فيرد كيدها الى النحر ويشعل معركة ، ضارية مليئة بالحركة تلتبس فيها الخيل، فلا يبدو العدو من الصديق ، ولاترى فيها غير حركة السيوف مبارزة وضرباً ، والرماح طعناً هابطة نازلة .

١٦ – فعزّ عليّ أن عجلَ المنايا ولما ألق كعبا أو كلابا
١٧ – ولما ألق خيلاً من نمير تضب لثاتها ترجو النهابا (١٥)
١٨ – ولما تلتبس خيلُ بخيل فيطعنوا ويضطربوا اضطرابا

ثم يفخر بقومه مشيراً إلى عزتهم ومنعتهم وغلبتهم فيقول :

١٩ – فيا للناس إنّ قناة قومي أبتْ بثقافها إلاّ انقلابا
٢٠ – همُ جدعوا الأنوف فأوعبوها

وهم تركوا بني سعد يبابا (١٦)

وهكذا حاول أن يخلدّ قومه بخلوده ويسجل مآثره ومآثرهم في ختام قصيدته وختام حياته .

---

(١٥) تضب لثاتها : يتحلب ريقها .
(١٦) اوعبوها : استأصلوها . اليباب : الخراب .

ثانياً : الشعراء الأسرى

قال شعراء هذه المجموعة الشعر من دائرة الموت ، فبعضهم قتلُ بعيد أسرة نحو : الشنفرى وعبيد بن الأبرص وبعضهم قتل بعد أن مضى زمناً في السجن أو الأسر نحو طرفة بن العبد وعبد يغوث .

يروي لنا صاحب الأغاني ان بني سلامان لما أسروا الشنفري « أدوه الى أهلهم ، وقالوا له : أنشدنا ؛ فقال: انما النشيد على المسرّة ، فذهبت مثلا ثم ضربوا يده فتبعصصت » (١٧) فقال في ذلك (١٨) :

لاتبعدي إمّا ذهبتِ شامهْ فربّ واد نفرّتْ حَمامه
وربّ قِرنٍ فصلتْ عظامه وربّ حيٍّ فرّقت سَوامه

لقد رفض الشنفري الأنشاد عند اسره ولكنه ارتجز يؤبن يده ويخاطب شامة سوداء فيها، إن الشعر الأصيل يمتلك قدره فائقة على الأستجابة للتحدي كما يمتلك روح الخلود والبقاء والشاعر لاشك في أنه يدرك هذه القوة ويتواصل مع هذه الروح ، ولذلك يسجل لنفسه الخلود في ذاكرة الأمة بتأبين يده التي نفرّت حمام الوديان وفصلت عظام الشجعان ، وساقت ابل الحيّ عُنوة عنيمة له .

إن براعة الشاعر في تكرار «رب» اتاحت له مضاعفة البطولات التي نفذتها يده وتتابع الجولات والصولات التي جالها وصالها قبل فراقها ، فإن تذهب اليوم فقد أدت ما عليها ووفّت،واستحقت ان يدعو لها بالخير «لا تبعدي»، فإذا علمنا أن جلّ غاراته كانت على بني سلامان الذين قطعوا «شامة» أدركنا ما ينطوي عليه ذلك التأبين من جرأة وتحد وادركنا ما في نفس الشاعر من إرادة عنيدة لا تلين،إنه إلى آخر لحظة يستهين بهم ولا يريد ان يتيح لنفوسهم

(١٧) ينظر تفاصيل خبر مقتله في الأغاني ٨٣٩٦/٢٤ .
(١٨) نفسه ٨٤١٣/٢٤ .

التي تغلي حنقاً وغيضاً شفاء غليلها في رغبة الثأر والانتقام منه . قالوا له من قبل انشدنا . فقال : النشيد على المسرة . ثم قال له أحدهم :أأطرفك ثم رماه في عينه ، فقال الشنفري له : كذلك كنا نفعل،وكان إذا رمى رجلا منهم يقول له : أأطرفك ؟ ثم يرمي عينه . وفي جوابه«كذلك كنا نفعل»حرمان لهم من التشفي أو اطفاء نار الغيظ وإمعان في تحديهم،ويستمرون بمحاولة التشفي به . فقالوا حين أرادوا قتله : اين نقبرك ؟ فقال (١٩) :

١ — لا تقبرونـي إنّ قبري محرم عليكم ولكـن أبشري أم عامـر (٢٠)

إنه يحرم عليهم دفنه وكأن في دفنه خلاصاً لهم منه فهو يتحداهم ويحرمهم من نسيانه إذا قبر ، ويريد لجثته أن تبقى شبح خوف لبني سلامان ومنغصاً لأمنهم وطمأنينتهم كلما رأوها من ناحية ، ومن ناحية اخرى كأن الشاعر يحس بأن القبر سجن جديد وأسر آخر ، أو حرمان من الحرية التي ينشدها في الأرض الفضاء ، وطالما عاش متشرداً بين سباع الأرض فمن حقها ان تأكل لحمه ولها في ذلك البشرى،وفي هذه البشرى استخفاف بالموت وتنعم بحرية حرم منها يوم عاش بين بني سلامان مرة ويوم اسروه واوثقوه مرة ثانية .

٢ — اذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري

وغودر عنـد الملتقى ثمّ سائـــــري

هنا تبدأ العاطفة بالتغير وتنتهي لهجة التحدي ويخفت الصوت تباعاً ليتناسق مع طقوس الموت،وحمل الجثة ومغادرتها عند ملتقى الطريق ، وهنا يحس بالموت إحساساً عميقاً لكنه لا يصرح به بوضوح ، بيد اننا ندركه من نغمة الأسى المرتبطة بانقطاع الرجاء والأمل بالسرور «آخر الليالي» — موعده مع الغارات والغزوات التي كان مسروراً بشنها — مأخوذاً بذنوبه .

---

(١٩) الاغاني ٨٣٩٧/٢٤ .

(٢٠) ام عامر : كنية الضبع .

٣ – هنالك لا ارجو حياة تسرني سمير الليالي مبسلا بالجرائر (٢١)

والشاعر الآخر الذي قال الشعر قبيل موته عبيد بن الأبرص الذي كان مقتله نزوة من نزوات المنذر بن ماء السماء ، قتله في يوم بؤسه ، وقال له لما اراد قتله : انشدنا قولك (٢٢) :

اقفر من أهله ملحوب

فقال عبيد :

١ – اقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيدُ

٢ – عنّتْ له منيّةٌ نكودُ وحانَ منها له ورود

الشاعر في هذا الموقف في دهشة من أمره فهو محكوم بالقتل بلا جناية أو ثأر أو حرب أو ايّ مما يقتل به الناس،إنه يقتل بنزوة للمنذر ندماً على نزوة قتل سبقتها ،والقاتل المتغطرس يريد من القتيل ان ينشده الشعر ليستمتع به ويطرب لإنشاده، وليس للشاعر حول أو قوة لرد القتل ، أو المروق بجلده ، أو الحاق الأذى بقاتله،ومن يدري فلربما يطلقه المنذر لو مدحه بشعر أو استعطفه بقصيدة،وربما عنّ ذلك للشاعر ولكنه رفض أن يمدح أو يستعطف ولم يذنب ولم يقترف إثماً ، وربما كان يائساً من عطف المنذر أيضاً،ولكن الذي لا شك فيه ان الشاعر كان يمتلك سلاحاً فاتكاً يؤذي المنذر ويسوّد صفحته إلى أبد الآبدين، وذلك بأن يرميه بقافية من الشعر تهز مكانه بين قبائل العرب وتسمه

(٢١) سمير الليالي : اخرها . مبسلا : مسلماً . الجرائر : جمع جريرة وهي الذنب يجره الرجل على قومه .

(٢٢) كان المنذر بن ماء السماء قد نادمه رجلان من بني اسد فأغضبا في بعض المنطق فأمر بهما فدفنا بظهر الحيرة ، حتى اذا اصبح ندم على ذلك وامر ببناء صومعتين عليهما ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند قبريهما يسمى احدهما يوم نعيم والأخر يوم بؤس ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل ، واول من يطلع عليه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ويغرى بدمه القبران ، وقد اشرف عليه عبيد في يوم بؤسه . ينظر الأغاني ٢٨/ ٩٦٦٩ وديوانه ٤٥ .

بميسم يصل بألم الكي إلى صميم فؤاده،والموت موت ، فليفعل بعدها الملك ما يشاء،لكن الشاعر لم يلجأ إلى سلاحه لبقية أمل في نفسه ،أو لخوفه من المنذر،أو أن الأمر لم يخطر بباله أساساً، ومهما يكن الأمر فإنه وصف حاله بأنه لا حول له ولا قوة فهو(لا يبدي ولا يعيد)وقد حانت منيته بغيضة محزنة محيرة ، ويلح عليه المنذر مستنشداً فيأبى عليه ما يريد من الشعر وينشد ما لا يعجب قائله (٢٣) :

١ – والله إن مِتُّ ما ضرني وإن عشتُ ما عشتُ في واحدة

يسلم الشاعر نفسه للموت قانعاً بحتميته ، ويقسم بأنه لا يبالي اعاش ام مات ، فالأمر أمامه سيّان ، ثم يوجه الموعظة إلى بنيه وإخوته ، فإن النفوس مؤجلة إلى أجل يوافيها مهما كرهت ذلك :

٢ – فأبلغ بنيَّ وأعمامهم بأن المنايا هي الواردة

٣ – لها مدّة فنفوس العباد إليها وإن كرهت قاصدة

يحاول بعد ذلك تعزية نفسه من خلال تعزيتهم فيصوغ التعزية مثلاً «للموت ما تلد الوالدة» .

٤ – فلا تجزعوا لحمام دنا فللموت ماتلد الوالدة

فالمثل تكثيف لتجربة الأنسان مع الموت طوال حياته وعصوره وكل الولادات تؤول إلى الموت ، وإذا كان الأمر كذلك فإن الحياة لاتسر وإن الموت لايحزن

٥ – فوالله إن عشتْ ماسرّنيْ وإن متُ ماكانت العائدة

هكذا بدأ بالله يقسم مستهينا بالموت وانهى الأبيات بقسم يستهين فيه بالحياة ، وتوجه إلى أهله بوصية يعظهم فيها أن يتقبلوا الموت بتسليم .

(٢٣) ديوانه ٤٦ .

واما طرفة بن العبد البكري فقد هجا عمرو بن هند ملك الحيرة ، فكتب رسالة إلى عامله على البحرين يأمره فيها بقتل طرفه ، وأرسل الرسالة بيد الشاعر موهماً إياه بأنها تضم أمراً بتكريمه واجازته، ولما تسلم عامل البحرين الرسالة أمر بالشاعر فأودع السجن تمهيداً لقتله، فأخذ يحرض قومه على نجدته واطلاقه من السجن ولكن تحريضه ذهب هباء، ولم يستجب قومه لندائه (٢٤) وطرفة هو الذي آل على نفسه أن يكون أول ملب لداعي قومه وعشيرته إلى الملمات والخطوب والحروب فقد نذر نفسه لها: (٢٥) .

٦٤ ــ اذا القوم قالوا من فتى خلت أنني
عنيت فلم أكسل ولم أتبلّد

وصار اليوم رهين الحبس تمهيداً لقتله ، فكيف يناشد قومه أن يهبوا لنجدته ؟ وما موقف قومه منه ومن سجنه؟ وقد بين لنفسه تصوراً عن الموت وحتميته فصور الأنسان رهين حبل في يد المنيّة: (٢٦)

٨٩ ــ لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطِّوَلِ المرْخى وثِنياه باليد

٩٠ ــ متى يشاء يوماً يقده لحتفه ومن يك في حبل المنيّة ينقد

لقد آل أمر الشاعر الى الحتف والموت ، فكيف يسجل بشعره هذا المآل؟ وهل يتغير رأيه الذي رأه في حتمية الموت ، وهو خارج دائرة الموت بعد أن خطا إلى داخلها؟ يقول طرفة : (٢٧)

١ ــ ياحقبة السُّوء بنا اسْجَحِنْ قدكنت عن هضبتنا نازحة (٢٨)

(٢٤) ينظر خبر الرسالة وخبر مقتله في الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد . تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته ١٣ ــ ١٥ .
(٢٥) نفسه ٤٥ .
(٢٦) نفسه ٥٣ ــ ٥٤ الطول : الحبل . ثنياه : طرفاه .
(٢٧) نفسه ٢٥ ــ ٢٦ .
(٢٨) اسجحن : ارفقن . الهضبة هنا : العز . نازحة : بعيدة . فادحة : عظيمة .

٢ — أسلمني قومي ولم يغضبوا لسوءة حلّت بهم فادحه (٢٩)

٣ — كل خليل كنت خاللتُه لاترك الله له واضحة (٣٠)

٤ — كلهم أروغ من ثعلب ماأشبه الليلةَ بالبارحة (٣١)

ان الشاعر يألم لأنه في قبضة الموت ، وقد كنا نتوقع منه ان يكون أكثر استسلاماً للموت أو القتل في ساحة المعركة حين يحين، ولكن غضبه هنا ليس سببه الموت أو القتل ، بل الغدر والخديعة وخذلان قومه الذين تخلوا عنه فأسلموه للقتل — وما كان ليسلمهم — فأصيب بخيبة أمل كبيرة وإحباط ولذلك يلقي بعض لومه على الزمن «حقبة السوء» وجلّه على أصحابه وقومه ويشبههم بالثعالب في روغانها وحيدها عن الحق والصواب ويدعو الله ان يمحق أسنانهم جميعاً فكلهم سواء .

لقد أتاح السجن للشاعر زمناً يتفنن فيه بصوغ الشعر فاستعار للزمن صفة الأنسان وطلب الرفق منه وكنّى عن العز والرفعة بالهضبة ، وشبّه صحبه وأخلاءه بالثعالب في روغانها وضرب لتشابههم في سوء فعلتهم مثلا بتشابه الليالي السود «ماأشبه الليلة بالبارحة» .

ولما تأخر قومه عن نصرته خاطبهم ثانية ، ولكن بغضب وانفعال وتعنيف واذا كان في المقطوعة الأولى قد دعا عليهم بسحق أسنانهم ، فانه في هذه المقطوعة سوف يدعو عليهم بقطع آذانهم ،ويذكر أسماء سادتهم ورؤساء البيوت في عشائرهم ؛ لأنهم لم يهبوا لنجدته ، ولم يدافعوا عن أحسابهم وقيمهم (٣٢)

---

(٢٩) اسلمني : خذلني . السوءة : الخلة القبيحة .

(٣٠) الواضحة : الاسنان تبدو عند الضحك .

(٣١) اروغ : من الروغان وهو الميل عن الحق .

(٣٢) الشاعر الجاهلي الشاب ٢٣٢ — ٢٣٣ .

١ ــ أبلغ سراة بني بكر مغلغلة
فجدّع الله من آذانها اليُمُنا (٣٣)

٢ ــ عنيت ثعلبةَ العجلّي مألكةً
عند الحوادث اذا أَلّى واذ غَبنا (٣٤)

٣ ــ والمرءَ قيساً يرى نَوّاحةً بعثت
تبكي لبيت ولاتبكي به شجنا (٣٥)

ثم يبلغ به الغضب مبلغاً فيهجو هانئا ويفحش في هجائه فيقول:

٤ ــ وهانئاً هانئاً في الحيّ مومسةً
ناطت سخابا وناطت فوقه ثكُنَا(٣٦)

فهو لايسلب هانئا رجولته ويحيله امرأة فحسب ، بل يسلب هذه المرأة شرفها حينما يجعلها مومسةَ تتزين اغواء للرجال ، وفي هذا حط أي حط من مكانة هانيء، ولكن طرفه يرى انه: يستحق هذه المكافأة لتقاعسه عن نصرة فارس من قومه ، ولقعوده عن بناء ذكرهم الحسن :

٥ ــ مادافعوا فيرى فيهم مكانُهمُ
ولاسمعنا لها من ذِكرِها حَسَنا

وقد عقد الشاعر لقيس (البيت الرابع) مشابهة بين رئاسته بيتا من بيوت بكر وادعائه الحرص على أحسابها ،وبكاء النائحة المستأجرة التي تبكي في

---

(٣٣) سراة : جمع سري وهو الشريف . مغلغلة : رسالة تحمل من بلد إلى بلد .
(٣٤) ثعلبة : يعني بني ثعلبة وهو احد اجداد طرفة . مألكة : رسالة . ألى : قصر وابطأ .
(٣٥) نواحة : النواحة تبكي بكاء ظاهرياً ليس من قلبها .
(٣٦) ناطت : علقت . السخاب : قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جوهر .
الثكن : جمع ثكنة : وهي القلادة .

البيت بكاء ظاهرياً يخلو من الحزن والدموع وقد قالوا قديما ليست النائحة كالثكلى ثم يشبه هانئا تشبيهاً مهينا بالفاجرة البرزة تبغي الرجال .

إن استغاثة الشاعر بقومه وصرخاته وشتائمه لم تثمر نخوة في نفوس قومه فلم يفزعوا لإنقاذه واسلموه للموت، فلما يئس منهم وحان حينه قال يصف خشبة صلبه حزيناً يائساً (٣٧) :

١— فمن مبلغ احياء بكر بن وائل بأن ابن عبد راكب غير راجل (٣٨)

٢ — على ناقة لم يركب الفحل ظهرها مشذبة اطرافها بالمناجل

لقد منح الزمن ذلك الفتى هنيهة اخيرة قبيل صلبه ، فأفاد منها لصوغ استعارة جميلة لخشبة القتل التي شبهها بناقة شذبتها المناجل .

اسلم الموت طرفة إلى حالة هجا فيها قومه وافحش في هجاء سري من سراتهم لأنهم وقفوا منه نقيض موقفه الذي اعلن عنه في معلقته«اذا القوم قالوا من فتى» . وألم ذلك نفسه وأغضبها فنسي من جراء ذلك نفسه، ولم يبحث عن الخلود ليسجله في ذاكرة الأمة ولم يحاول ذكر بطولاته ومآثره الشخصية، ولم يصغ لنا أفكاره وحكمه وتجاربه في الحياة شعراً ولم يحاول ان يكون واعظاً أو حكيماً،ليس ذلك وليد خوف أو رعب ولكنه وليد غضب وشعور بالخيبة والإحباط ، شعور أنساه تأبين نفسه وتخليد مآثرها وهذا خلاف لما آل اليه امر شاعر آخر خذله قومه ولكنه لامهم وحاول تخليد نفسه بتأبينها وذكر مآثرها ألا وهو عبد يغوث الحارثي .

كان عبد يغوث رئيس عشيرته (مذحج) وقائدها في يوم (الكُلاب) بين مذحج وقبائل «تيم» ووقع اسيراً بعد أن فرّ عنه أتباعه وبقي يدافع عن نفسه

(٣٧) الشاعر الجاهلي الشاب ٢٢٧ .
(٣٨) الناقة هنا : الآلة الخشبية التي ربط عليها ليقتل .

واراد ان يفدي نفسه من الأسر فأبى عليه أعداؤه ذلك وقالوا نقتله بدم النعمان ابن جساس الذي قتل في اليوم نفسه ولم يكن الشاعر قاتله ، وكانوا قد شدوا لسانه لئلا يهجوهم ،فلما يئس من إقناعهم بالفدية طلب اليهم أن يطلقوا لسانه لينوح على نفسه فأستجابوا لطلبه،وسقوه الخمر ، ثم قطعوا له عرق الأكحل فنزف حتى مات (٣٩) ، وقال حين جهز للقتل (٤٠) :

١ ــ ألا لا تلوماني كفى اللّومَ ما بيا وما لكما في اللّوم خير ولا ليا

٢ ــ ألم تعلما أنّ الملامــةَ نفعُهـا قليل ، وما لومي أخي من شماليا(٤١)

ليس بالشاعر حاجة إلى اللوم ففي النفس ما يكفيه من مشاعر الأسى ، فلا نفع للوم وما من خلقه لومْ أخيه ، ولكن في النفس مشاعر غربة واحاسيس من الشوق دفعته إلى توجيه رسالة إلى قومه يعلمهم ان لقاءه مستحيل :

٣ ــ فيا راكباً إما عرضت فبلغَنْ نداماي مــن نجران أن لا تــلاقيـا

ويلوم قومه وأحلافهم على فرارهم وهزيمتهم .

٥ ــ جزى الله قومـي بالكُـلاب ملامـةً
صريحهُم والآخـريــن المواليــا (٤٢)

ثم يلتفت إلى نفسه يلتمس لها العذر في وقوعه أسيراً ، فهو لم يطلق عنان فرسه لينجو ، وإنما قاتل حتى أخذته رماح العدو وبهذا يبدأ تأبين نفسه :

٦ ــ ولو شئـت نجتنـي من الخيل نهدَة
ترى خلفها الحُوَّ الجياد تـواليــا (٤٣)

---

(٣٩) ينظر تفصيل خبر موته في الأغاني ١٧/٦١٥٩ ــ ٦١٦٦ .
(٤٠) المفضليات ١٥٥ ــ ١٥٨ .
(٤١) الشمال : الخلق . جمعها شمائل .
(٤٢) الكلاب : بضم الكاف ، يوم بين اهل اليمن وتميم وفيه اسر الشاعر .
(٤٣) النهدة : المرتفعة الخلق . الحوة : الخضرة ،والأحوى من الخيل ما ضرب لونه إلى الخضرة .

٧ – ولكنني أحمي ذمار ابيكم
وكان الرماح يختطفن المحاميا (٤٤)

ويصف شجاعته وحرصه على نقاء حسب أبيه ودفاعه عنه ، ومن كان شأنه كذلك فلا بد أن تناله الرماح يوماً قتيلا أو أسيراً ويصوغ لنا هذه الحتمية بصيغة المثل «وكان الرماح يختطفن المحاميا» . ثم يستعطف أسريه – خلافاً لما فعله الشنفرى وعبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد – ويذكر مفاوضته إياهم على الفدية ويبرىء نفسه من دم النعمان بن جساس فيقول :

٨ – أقول وقد شدوا لساني بنسعة
أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا (٤٥)

٩ – أمعشر تيم قد ملكتم فاسجحوا
فإن أخاكم لم يكن من بوائيا (٤٦)

١٠ – فإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً
وإن تطلقوني تحربوني بماليا (٤٧)

ويخيم شبح الموت على نفسه فتنتابه مشاعر الألم والشوق إلى ارضه واهله واحس بالغربة التي احس بها بشر بن أبي خازم قبله :

١١ – احقاً عباد الله أن لست سامعاً
نشيد الرّعاء المعزبين المتاليا

---

(٤٤) الذمار : ما يجب على الرجل حفظه كحرمة الجار وطلب الثأر .
(٤٥) النسعة : بكسر النون سير يضفر من جلد .
(٤٦) اسجحوا : يسروا امري في الفداء وارفقوا بي . اخاكم : النعمان بن جساس البواء : ان يقتل الرجل برجل ، فيصير دمه بدمه .
(٤٧) حربه : اخذ ماله كله ولم يبق شيئاً .

١٢ ــ وتضحك مني شيخهُ عبشميةُ
كأن لم ترى قبلي اسيراً يمانيا

ويعود الشاعر لتسجيل مآثره وصولاته مضفياً على نفسه شجاعة الأسود ويؤبن نفسه بذكر كرمه ونحره الجزور للضيف، ومطيته للندماء الكرام وسماعه الغناء حتى يطرب فيمزق ثيابه من فرط السكر والطرب .وقد قال ذلك تعزية لنفسه وتسلية ليقنعها بأنها قد عبّت من ملذات الدنيا ما شاءت فلا اسف على الحياة عند الموت .

١٤ ــ وقد علمت عرسي مليكة انني
أنا اللّيْثُ معدواً عليَّ وعاديا

١٥ ــ وقد كنت نحار الجزور ومعمل ال
مطي وأمضي حيثُ لاحيَّ ماضيا

١٦ ــ وانحر للشرب الكرام مَطيّتي
وأصدع بين القينتين ردائيا

ويعود من الملذات إلى التأبين بالبطولة ليخلد شجاعته وبأسه بشعره ويباهي بتصرفه بفنون القتال إذا اشتد التطاعن بالرماح حتى تنفر الخيل، هنالك تأتي براعته في تصريف القناة بجرأة ومهارة :

١٧ ــ وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا
لبيقا بتصريف القناة بنانيا (٤٨)

ثم يفاخر بأنه يردّ الخيل المغيرة الكثيرة كثرة الجراد خائبة مدحورة على الرغم من أن فرسانها يتجهون اليه برماحهم :

---

(٤٨) شمصها : نفرها .

١٨ – وعاديـــة سوم الجـراد وزَعتـهـا
بكفي وقد أنْحَوا اليّ الـعـــوالـيا(٤٩)

لقد انقضى عمره بسرعة وكأنه لم يعش ذلك الزمن الذي شغل به نفسه بركوب الخيل وإغاثة الملهوفين وتقديم الخمر وإيقاد نار الضيف:

١٩ – كأني لم أركب جواداً ولم أقـــل
لخيلي كرّي نفسي عـن رجاليـا
٢٠ – ولم أسبأ الزق الرويّ ولم اقـــل
لإيسار صدق . أعظموا ضوء ناريـا(٥٠)

هكذا ودع الدنيا والقصيدة ونفسه بملذات الحياة ، جمعها في بيتين :– الفروسية والشجاعة والخمر والكرم (٥١) .

ثالثا – شعراء وافتهم المنية

وهم الذين اجتازوا عتبة الموت وخطوا الى دائرة بين يدي أجل محقق ، وأولهم أمرؤ القيس بن حجر الذي كان أبوه ملكاً على كندة فقتلته بنو أسد وزال ملكه ، فأراد الشاعر أن يثأر له ويعيد ملكه فلم تواته الفرصة ، وتعقّبه المنذر ملك الحيرة فاستجار بأحياء العرب حتى انتهى به المطاف إلى قيصر ، ملك الروم فأكرم وفادته وقربه منه ، ولكن سعاية رجل من بني أسد يدعى الطمّاح غيرت موقف القيصر منه فأهداه حلةً مسمومة سُرّ بها ولبسها ، فأسرع فيه السم فسقط جلده ، وقال أكثر من مقطوعة في اقتراب

(٤٩) عادية : خيل عادية . سوم الجراد : انتشاره في طلب المرعى يريد بذلك كثرة الخيل . وزعتها : كففتها . انحو إلي : توجهوا الي برماحهم .
(٥٠) سباء الخمر : شراؤها . الروي : الممتلىء . الإيسار : ضاربو قداح الميسر .
(٥١) ينظر الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام ففيها موازنة في الغربة والخلود بين قصيدة الحارثي وقصيدة شاعر من صدر الإسلام يدعى خبيب ١٨٢ – ١٨٥ .

أجله عند عودته من قيصر (٥٢) . وأطول هذه المقطوعات قالها وهو يعالج قروحه ثم قدم أنقرة فكان بها حتى مات ، وفي ذلك يقول: (٥٣)

١ – ألا أبلغ بني حُجر بن عمرو
وأبلغ ذلك الحيَّ الحريدا

٢ – بأني قد بقيتُ بقاءَ نفس
ولم أخلق سِلاماً أو حديدا (٥٤)

٣ – فلو أني هلكت بدار قومي
لقلتُ الموتُ حقٌّ لا خلودا

٤ – ولكنّي هلكت بأرض قوم
بعيد من دياركم بعيدا

٥ – أعالج ملكَ قيصر كل يوم
وأجْدِرْ بالمنيةْ أن تعودا

٦ – بأرض الروم لانسبُ قريب
ولاشاف فيسند أو يعودا

٧ – ولو وافقتهن على أسَيس
ضُحيّاً أو وردن بنا زرودا (٥٥)

٨ – على قلص تظلّ مقلدات
أزِمتهنّ ما يعدفن عودا (٥٦)

---

(٥٢) ينظر الأغاني ٩/٣٢١٣ – ٣٢٢١ وديوانه ٢١٢ – ٢١٣ .
(٥٣) ديوانه ٢١٣ – ٢١٤ .
(٥٤) سلاماً : السلام : الحجارة واحدها سلمة .
(٥٥) وافقتهن : يعني المنايا والأحداث . اسيس وزرود : موضعان .
(٥٦) قلص : جمع قلوص وهي الناقة الفتية . يعدفن : يذقن . ازمة : جمع زمام .

الشاعر يرسل رسالة إلى إخوته وقومه تقترب في فحواها من فحوى رسالة عبيد بن الأبرص لبنيه وإخوته بما فيهما من صبر على الموت ، وتعزية للنفس وتختلف عن رسالتي طرفة بن العبد التي تضمنت الأولى منهما هجاء لأهله وسراة قومه والثانية خبر إعدامه على خشبة الصلب ، وتزيد على برقية عبديغوث الحارثي « أن لاتلاقيا» فامرؤ القيس يعتذر لنفسه ويقرر حقيقة الضعف الأنساني كونه خلق من جسد وروح ليموت ولم يخلق من صخر أوحديد فيبقى ، ويخاطب الشاعر نفسه مؤكداً مشاعر الغربة التي أحس بها بعيداً عن قومه وأهله ، وأنه لو مات بين ظهرانيهم لكان ذلك تعزية لنفسه عند الموت واستسلاماً لحتميته « لقلت الموت حق لامخلوداً » ولكن الحزن الذي تنطوي عليه النفس والمرارة التي تألم لها الروح يتأتيان من هلاكه بعيداً عن وطنه في بلاد الروم ، بلاد ليس له فيها أهل أو رحم او عائد تسرّ به النفس ، يسنده ويشد أزره ويستل أحزانه ، ويتمنى لو ان المنايا وافقته في ديار قومه أول الضحى أو عند المساء على نياق فتية تشاركه حزنه وتأسى لموته فتكف عن الرعي ومضغ الطعام . ويلحظ ان تعامل الشاعر مع المواقع (أسيس أوزرود» وهما موضعان في بلاد قومه ينطلق من عمق الصلة التي تثيرها هذه المواقع وتبغيها هذه الأماكن لما تحمله من ذكريات وتحتفظ به من صور ، عزيزة على نفوس الشعراء (٥٧) .

ثمة مشاعر مشتركة بين البشر وثمة أحاسيس تكاد تكون واحدة عند الأنسان واخيه الأنسان في كل مكان وتوشك أن تكون وقفة المرء ازاء الموت واحساسه بالقهر تجاهه واحداً ولذلك فان هذه القصيدة تستأثر بمشاعرنا وتدخل صميم قلوبنا على الرغم مما بيننا وبين الشاعر من مسافة وزمن ، ولكنها النفس

(٥٧) الشعر الجاهلي د. نوري القيسي (مجلة) ٣٨ .

الإنسانية تقترب من أختها وتتوحد معها إزاء الموت ، وربما يكون هذا سر احساسنا بالحزن وشعورنا بالأسى تجاه ميتة امريء القيس غريبا فريداً يائسا .

ليس في القصيدة صور مجازية ولكنها اللغة المشتركة للبشر أمام الموت ، وتجربة الإنسان يوجزها الشاعر في صيغة مثل « وأجدر بالمنية أن تعودا»وهي القدرة البارعة التي عرف بها امرؤ القيس على التأثير في المتلقي وهز مشاعره بعمق .

يذكر الشاعر في المقطوعة الاتية التي قالها في أنقرة أيضاً يذكر علته ويبدؤهابالوقوف على الطلل وهو الوحيد الذي فعل ذلك من دون سائر الشعراء الذين تناولهم البحث وفي هذه المقطوعة حسب فيقول : (٥٨) .

١ ــ لمن طلل داثر آيُــهُ تقادمَ في سالف الأحْرُس (٥٩)

فهو يتساءل عن أهل الطلل وكأنه غريب عنه غربة نفسه وكأنه قديم في البشرية قدم الموت الذي خلق مع الحياة،وهو طلل ميت (داثر) ليس فيه أي معلم من معالم الحياة أو أي آية من آيات الحيوية والأحياء ذلك أن امرأ القيس في دائرة الموت الآن في هذه الوقفة وقد يئس من الحياة فلم يعد قادراً على رؤية ظواهرها في الطلل ولم يعد قادراً على إشاعة عناصر الحياة فيه كما كان دأبه في معلقته . إنه يتساءل عن اصحاب الطلل ثم يلتفت إلى المرأة فيصف لهـا مرضه وسقمه وكأني به يخاطب نفسه من خلالها :

٢ ــ فإمـا تـريني َ بـي عـرة كأني نكيب من النْقرس (٦٠)

---

(٥٨) ديوانه ٣٣٩ .
(٥٩) الأحرس : جمع حرس وهو الدهر .
(٦٠) العرة : القرحة في الجسم . النقرس : داء يصيب المفاصل .

٣ – وصيّرني القُرح في جبّة تخال لبيساً ولم تلبس (٦١)
٤ – ترى أثر القُرح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس (٦٢)

ينظر الشاعر إلى جسمه فيرى ما فيه من داء وما على جلده من سقم وما في بدنه من وهن فتتوالى عنده صور هذا المرض مشبهاً انحناء قامته بانحناء المصاب بالنقرس ثم يستعير صورة الثوب للتقرحات التي عمّت جلده كأنها توقيعات الخواتم في الصحف .

ويقترب أجل الشاعر ويدنو الموت منه قيد خطوات فيراه قريباً من قبر امرأة على جبل عسيب ،فتعصر الغربة قلبه ، وتطبق على صدره لوعة البعد لكنه يسلي نفسه ويعزيها بقبر امرأة غريب فيقول (٦٣) :

١ – أجارتنا إنّ المزار قريبُ وإني مقيم ما أقام عسيب (٦٤)
٢ – أجارتنا إنّا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

عما قريب سيزور المرأة زيارة لم يقم بها من قبل ولسوف يخالف بها دأبه في زياراته الليلية البهيجة بلا خوف من قومها أو أحراسها أو زوجها سيزورها في قبر قريب ، زيارة ليس بعدها مغادرة أو رحيل،بيد أن فيها عزاء للنفس في غربتها غربة يتخذ منها رحماً تصله بها إلى أبد الآبدين خلافاً لرحم الدم التي يقطعها الموت .

ويقترب الموت من امريء القيس خطوة اخرى ويغدو قاب قوسين من الردى فيبلغ به الغيظ مبلغاً عميقاً لبعده وغربته وخيبة رجائه فيقول (٦٥) :

١ – لقد دمعت عيناي في القرّ والقيظِ وهل تدمع العينان إلاّ من الغيظ !

(٦١) اللبيس : الثوب الخلق شبه طبقة الجلد المتقرحة من جسمه بالثوب .
(٦٢) الجرجس : الصحيفة .
(٦٣) ديوانه ٣٥٧ .
(٦٤) عسيب : جبل في انقرة .
(٦٥) ديوانه ٣٥٧ .

٢ ــ فلما رأيت الشّر ليس ببارح دعوت لنفسي عند ذلك بالفيظ (٦٦)

كان يتذكر مآسي حياته التي أذرت دموع عينيه على مدار الزمن في شتائه وصيفه ، وحاول بجهده أن يدفع الشر عن نفسه ولكن دون جدوى ، وحاول استعادة ملك ابيه فلم يفلح وها هو الآن قاب قوسين من الردى فلا بأس ان يطلق الروح من عناء الجسد . ويصوغ لنا سبباً من أسباب البكاء بصيغة المثل «وهل تدمع العينان إلاّ من الغيظ» .

إنّ امرأ القيس في مقطوعاته قد أكد حتمية الموت ، وضعف الإنسان في مواجهته ،وإنّ ادراكه لهذه الحتمية لم يدفعه إلى الجرأة على الموت كما فعل الشعراء الفرسان (٦٧) . ثم أولى الشاعر الغربة وما يرتبط بها من مشاعر اهتماماً جلياً ، ولم يلق بالاً لتخليد نفسه بتأنيبها كما فعل سواه ،ووصف علّته وسقم جسمه وجلده ، وحدد مكان موته فوق جبل عسيب ،وأبدى الحزن على نفسه لخيبتها وإحباطها من جراء المرض وضياع الملك فتمنى الموت ، بيد ان تمنيه لم يكن لامتداد العمر الذي ادى بالشعراء المعمرين إلى تمنيه (٦٨) .

وثاني شعراء هذه المجموعة أفنون بن صريم التغلبي الذي لقي كاهناً في الجاهلية فأخبره انه يموت بمكان يدعى «الإلاهة» .ثم سافر إلى الشام وفي طريق عودته ضلّت القافلة الطريق .ثم دلّوا عليه عبر الإلاهة (وهي قارة بالسماوة) فلما أتوها خشي ان ينزل عن ناقته فيدركه الموت حسب نبوءة الكاهن ، وبينا كانت ناقته ترعى العشب لدغتها افعى في مشفرها، فاحتكت بساقه والحيّة متعلقة به فلدغته في ساقه فقال لأخ له اسمه معاوية: احفر لي قبراً فإني هالك(٦٩)

(٦٦) فاظت نفسه : خرجت وفاظ الرجل : مات .
(٦٧) ينظر الحياة والموت في الشعر الجاهلي ٢٣٤ — ٢٣٥ .
(٦٨) تجربة الأيام لدى المعمرين من شعراء صدر الاسلام د. سامي العاني (مجلة) ٨١ .
(٦٩) هامش المفضليات ٢٦٠ .

ومغزى هذه القصة حسبما يرى الدكتور الجادر هو : «تأكيدها ان قدر الموت اقوى من جهد الإنسان ، فالموت وهم لا بد ان يتحول إلى حقيقة مهما حاول الإنسان الهرب منه» (٧٠) . وقال أفنون يخاطب أخاه معاوية (٧١) :

١ — ألا لست في شيء فروحاً معاوياً
ولا المشفقات يتّبعْن الحوازيا (٧٢)

٢ — ولا خيرَ فيما يكذبُ المرء نفسَه
وتِقوالةٌ للشيء ليت ذا ليا

٣ — وإن اعجبتك الدهر حال من امريء
فدعهُ وواكل حاله والليالي

٤ — يَرُحن عليه او يُغيّرن ما به
وإن لم يكن في جوفه العيش وانيا

إن الشاعر بعد ان وقف على عتبة الموت يزهّد أخاه في الدنيا وما فيها من سرور يبعث الفرحة في نفوس الناس ،لأن مآل كل شيء إلى الفناء ومآل المرء إلى الموت ، وما دام الأمر كذلك فلنكفر بالكهان واقوالهم ولنبعد عن خوف النساء من المستقبل وخبيء القدر ، ان تعليل النفس بالمنى باطل وان احوال المرءلاتدوم مهما بلغته من رفعة وأثارته من إعجاب فلا بد يوماً أن يذهب برفعتها الموت ويجعلها محط حزن واشفاق بعد ان كانت مثار دهشة وإعجاب ، إن الزمن كفيل بزوال حالي المرء من الحزن والمسرة :

٥ — فطأ معرضاً انّ الحتوف كثيرة
وانّك لاتبقى بمالك باقياً

(٧٠) هاجس الخلود في الشعر العربي قبل الإسلام د. محمود الجادر (مجلة) ٩٨ .
(٧١) حماسة البحتري ١٦٣ — ١٦٤ .
(٧٢) فروحاً : كثير الفرح . المشفقات : النساء الخائفات . الحوازي : جمع حاز ، زاجر الطير.

٦ — لعمرك مايدري امرؤ كيف يتقي
إذا هو لم يجعل له الله واقيا

٧ — كفى حزنا أن يسرحل الرّكب غدوةً
وأصبح في أعلى الالاهة ثاويا (٧٣)

ان الشاعر بعد ان ايقن من عجز الكاهن وزاجر الطير عن دفع الموت عنه ينصح أخاه أن يسير في الأرض حيث يشاء فان الحتوف كثيرة وسوف تصادفه أنّى أقام وأنّى نأى فلماذا يهرب منها؟ ويقتنص أفنون فرصة الرهبة من الموت ليوجه النصح لأخيه ويحثه على الكرم والأنفاق فإن ادخار المال وبقاءه لايخلد صاحبه ،ويصوغ لنا فكرة رائعة من افكار الأحناف بصيغة المثل موجزة مكثفة سريعة « لعمرك مايدري امرؤ كيف يتقي اذا هو لم يجعل له الله واقيا» ليس من أحد بقادر على حفظ الأنسان غير الله فهو الذي يقيه من الشرّ والأذى ويلتفت أفنون الى نفسه فيراها حزينة بائسة تنتابها مشاعر الغربة ، فبعد قليل ينام نومته الأبدية بلا أنيس يؤنس وحشة قبره كما صادف لامرىء القيس ، ولكنه سوف يطيل اللبوث في ذلك اللحد بعد أن يرحل عنه المسافرون .

وثالث شعراء هذه المجموعة يزيد بن خذّاق الشنيّ الذي يتفق المفضل الضبي وثعلب وأبو عمرو بن العلاء على أنه«أول من ذمّ الدنيا» (٧٤)وصور حاله بعد الموت ، وسنلمح في شعره أنه قالها عند موته أو عند شعوره باقتراب أجله فهو يبدأ أبياته بتساؤلين عن الموت ومصائبه ،فأما الأول فعن محال الوقاية من المصائب ونائبات الزمن ، وأما الثاني فعن الشفاء من الموت وعلاجه ،وهما

---

(٧٣) الإلاهة : قارة بالسماوة .
(٧٤) هامش المفضليات ٢٩٩ .

استفهامان خارجان للنفي وظيفتهما توكيد استحالة الوقاية من الموت اوعلاجه يقول : (٧٥)

١ — هل للفتى من بناتِ الدهـــر مـــن واق
أم هـــل لـــه من حِمام المـوت مـــن راق

ثم يجنح الخيال بيزيد فيصور لنا ما يجري للميت من غسل وترجيل شعر وإدراج في الكفن ، يليه رفعه على الأعناق وتشييعه إلى مثواه لاحول له ولا قوة ، يتولى بعد ذلك أفضل فتيان قومه حسباً دفنه في قبره :

٢ — قد رجّـــلـوني ومارجلتُ من شعث
والبسوني ثيـابـا غـير أخـــــــلاق

٣ — ورفّعوني وقـالوا : أيّـمـــا رجـل
وأدرجوني كـأني طـيٌّ مـخـراق(٧٦)

٤ — وأرسلوا فتية مـن خـيـرهـــم حسباً
ليسندوا في ضـريح التـرب أطباقي(٧٧)

ثم يعظنا بحتمية الموت ويلزمنا الصبر ومخالفة الجزع ويدعو دعوة خفية إلى إنفاق المال لأن المال هين الشأن ومآله الى الوارثين ومادام الأمر كذلك، فعلام هذا الحرص على جمعه ؟ وعلام الخوف من انفاقه وذهابه . ويصوغ لنا تجربة الإنسان مع المال وتجارب الكرام والبخلاء على حد سواء بصيغة المثل « إنما مالنا للوارث الباقي» سنة من سنن الحياة في الأحياء .

---

(٧٥) المفضليات : ٢٩٩ — ٣٠٠ .
(٧٦) طي مخراق : العمامة يلهو بها الصبيان فيضرب بعضهم بعضاً .
(٧٧) اطباق : جمع طبق وهو الغضروف بين كل فقارين من فقار الظهر ، واطباق الرأس : عظامه لتطابقها واشتباكها ينظر المعجم الوسيط مادة (طبق) .

٥ ــ هوّن عليك ولاتولع باشفاق
فانما مالنا للوارث الباقي

إن الموت يأتينا في زمن مجهول وسبيل غامض لاندرك طريقه ولانعلم مصدره ونجهل زمانه ومكانه ولذا فالشاعر يراه وكأنه سهام خفيّة تأتي عن بعد ومن ناحية قصية لكنها تأتي على كل حال.لقد وجّه يزيد بن خذاق اهتمامه لفنّه فكنّى عن الكفن بالثياب وشبه جدثه بالعمامة التي يلهو بها الصبية في العجز والأستسلام وانعدام الحول ،ثم استعار للدهر صفة الصيّاد واستعار لأسباب الموت نفاذ السهام :

٦ ــ كأنني قد رماني الدّهر عن عرُض
بنا فذات بلا ريش وأفواق

ومن الملاحظ على شعراء المجموعة الثالثة أنهم لم يحاولوا جميعاً تأبين أنفسهم أوتخليد ذكراهم ماخلا ومضة صغيرة لمحناها في قول يزيد «وقالوا أيمّا رجُل» وكان الثلاثة مؤمنين بحتمية الموت مستسلمين له ولم يدفعهم ايمانهم بهذه الحتمية الى الجرأة عليه كما فعل الشعراء الفرسان(٧٩).ووجدنا في شعر أفنون ويزيد وعظا لم نلمسه في شعر امريء القيس .

ملحوظات فنية :

تناول البحث قصيدتين واحدة لبشر بن أبي خازم وأخرى لعبد يغوث ، الحارثي طول كل منهما عشرون بيتاً ، وتناول خمس عشرة مقطوعة ، فالغالب على الشعر في دائرة الموت المقطعات والأيجاز والقصر ، وهو أمر مرهون بالظروف التي تحيط بالشاعر كونه في حالة احتضار أوبين يدي،

(٧٨) المشفقات : الخائفات .
(٧٩) ينظر الحياة والموت في الشعر الجاهلي ٢٣٤ ــ ٢٣٥ .

القتل أوفي انتظاره ، ويريد أن يرسل رسالة أويوصي وصية ، فليس ثمة مقام للإطالة إنه يريد ان تحفظ رسالته أو وصيته وأغلب الشعر الذي قيل في دائرة الموت من هذين اللونين والقصر أنسب لمقتضى حاليهما ، فقد «سئل أبو عمرو بن العلاء ! هل كانت العرب تطيل؟ فقال : نعم ليسمع منها ، قيل : فهل كانت توجز ؟ قال نعم ليحفظ عنها» (٨٠) . وفضلاً عن مسألة الحفظ فإن الجوّ النفسي للشاعر يملي عليه القصر خلافاً للإطالة التي تكون وليدة التمهل والأناة والاستقرار ، فكيف يتأتى لطرفة قول مطولة وهو يرى خشبة صلبه معدّة مهيأة لإزهاق روحه ، والشعر على حد تعبير الشنفري : «إنما النشيد على المسرّة» أو على حد قول عبيد بن الأبرص : «حال الجريض دون القريض» (٨١) .

والملحوظة الثانية عزوف الشعراء «باستثناء امريء القيس في مقطوعة واحدة » عن الوقوف على الأطلال واستهلال شعرهم بها خلافاً لما هو شائع ومعروف في الشعر العربي قبل الإسلام ، إذ يذكر أبو هلال العسكري : أن العرب في أكثر شعرها قبل الإسلام كانت «تبتديء بذكر الديار والبكاء عليها ، والوجد بفراق ساكنيها...» (٨٢) أما في دائرة الموت فالشاعر هو المفارق وأن البواعث والمواقف التي كانت وراء ظهور المقدمة الطللية لم تعد تناسب المقام بين يدي الموت على اختلاف التفسيرات التي قيلت بشأن المقدمة الطللية (٨٣) هذا فضلاً عن أن أغلب الشعر في دائرة الموت قيل على شكل مقطوعات — كما قدمنا — لاتسمح بتغطية موضوع واحد فما بالنا بمقدمة وموضوع .

(٨٠) العمدة ١٨٦/١ .
(٨١) الأغاني ٩٦٧٠/٢٨ . الجريض : الريق يغص به .
(٨٢) كتاب الصناعتين ٤٥٢/٢ .
(٨٣) ينظر موجز هذه التفسيرات في المطر في الشعر الجاهلي ١١٥ — ١٣٠ .

والملحوظة الثالثة حفول الشعر في دائرة الموت بالمثل وما يصاغ على صيغته في الشعر «والمثل السائر في كلام العرب كثير نظماً ونثراً وأفضله أوجزه وأحكمه وأصدقه» (٨٤) ، « والمثل إنما وزن في الشعر ليكون أشرد لـــه وأخف للنطق به فمتى لم يتزن كان الإتيان به قريباً من تركه» (٨٥) ودور المثل في الحياه بعامة وفي الشعر بخاصة دفع الإنسان إلى التفكر واتخاذ العبر والمواعظ والتذكر قال سبحانه . (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) (٨٦) وقال جل شأنه (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) (٨٧) .

لقد عمد الشعراء في دائرة الموت إلى الأمثال فضمنوا شعرهم بعضاً منها فقد ضرب بشر بن أبي خازم الأسدي لموته وغيابه عن ابنته مثلاً بغياب القارظ العنزي الذي خرج يطلب القرظ فلم يرجع إلى أهله) (٨٨) .

فرجّي الخير وانتظري إيابـي إذا ماالقارظ العنزي آبـــا

وضرب طرفة بن العبد البكري المثل لسوء خلانه وتنكر أصدقائه له عند سجنه بالثعالب في روغانها وضرب المثل أيضاً وفي بيت الشعر نفسه لتساوي أصدقائه في السوء بالليالي السود في ظلمتها :

كلهم «أروغُ من ثعلـــب»(٨٩) «ماأشبـه الليلـــة بالبارحة» (٩٠)

وعمد هؤلاء الشعراء فضلاً عن تضمين أشعارهم أمثالاً سائرة إلى صياغة

---

(٨٤) العمدة ١/٢٨٠ .
(٨٥) نفسه ١/٢٨٢ .
(٨٦) سورة الزمر ، الآية ٢٧ .
(٨٧) سورة الحشر ، الآية ٢١ .
(٨٨) ينظر مجمع الأمثال للميداني ١/٧٥ والقرظ : نبات يدبغ بورقه وثمره .
(٨٩) نفسه ١/٢٦ .
(٩٠) نفسه ٢/٢٧٥.

حكم وخلاصات لتجارب شخصية وعامة عن الموت على صيغة المثل وأسلوبه بعضها يرتبط بغربة الميت وإحساسه بالبعد من مثل قول بشر «كفى بالموت نأياً وأغتراباً» ونحو قول امرىء القيس «وكل غريب ، للغريب نسيب» وبعضها يقرر حتمية الموت ومآل الحياة إليه نحو قول عبيد بن الأبرص «فللموت ماتلد الوالدة .. وقول امرىء القيس «وأجدر بالمنية أن تعودا» . ويحدد يزيد بن خذاق الشنيّ علاقة المال بصاحبه علماً أنه وديعة تعود إلى الباقي بعد موت الراحل فيقول «فإنما مالنا للوارث الباقي» ويحدد امرؤ القيس سبباً من اسباب البكاء بقوله «وهل تدمع العينان الا من الغيظ» .

لقد جاءت تجارب هؤلاء الشعراء موجزة مكثفة مركزة في الصياغة واضحة سهلة الحفظ تعلق في الذهن مع سهولة في الايقاع تضمن شرودها وتغلغلها بين أبناء الأمة .

وبعد فثمة ملحوظة أخيرة هي من جنس الإيقاع الذي حرص الشعراء قبل الإسلام عليه في مطالع قصائدهم ألا وهو التصريع الذي يعرفه ابن رشيق بأنه «ماكانت عروض البيت فيه تابعة لضربه : تنقص بنقصه ، وتزيد بزيادته» (٩١) . وقد ترك شعراء دائرة الموت تصريع مطالع قصائدهم ومقطوعاتهم لما خلا خمس منها ، وربما كان ذلك لحزنهم على أنفسهم وبعدهم عن إيقاع التصريع الذي يناسب الفرح .

وبعد فقد ظل الإنسان العادي والشاعر على حد سواء قلقين بشأن الموت ، يبحثان عن الخلود في ذاكرة الناس الآخرين ويحققان ذلك كل حسب رصيده من الحسب الذي ارتضاه المجتمع ورضيت به الأمة ، ولكن هذا

---

(٩١) العمدة ١/١٧٤ .

الخلود يبقى في إطار الحياة الدنيا المهددة بالموت والفناء ولذلك ظل القلق من المصير يراود العربي قبل الإسلام حتى جاء الله برسالة الإسلام وبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحياة الآخرة وما فيها من خلود أبدي في نعيم مقيم أو في عذاب دائم بعمل المرء ورحمة ربّه إذا أخلص النية لله ، وبهذا انزاح القلق وانجاب ذلك الكابوس المظلم الذي كان يملأ أرجاء النفس الإنسانية عند ذكر الموت والفناء ، واستقرت النفس البشرية راضية مطمئنة لقضاء الله وقدره ، فهل سجل الشعر تجارب الشعراء مع الموت من داخل دائرته ؟ وهل صدروا عن هذا التصور الإسلامي للخلود والحياة الآخرة ؟ أم لازمهم ذلك الجزع والقلق المفزع ؟ هذا مانود أن نكشف عنه في بحث قادم يدرس الشعراء الإسلاميين في دائرة الموت بإذنه تعالى .

* * *

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المكتوب على الآلة الكاتبة

١ ـ الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام ـ دراسة فكرية فنية ،رسالة دكتوراه تقدم بها كلية الآداب في جامعة الموصل الدكتور علي كمال الدين محمد الفهادي صفر ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

المطبوعات

١ ـ الأغاني ، أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) إشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، طبعة خاصة تصدرها دار الشعب ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

٢ ـ الحماسة (رواية أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن أبي خالد الأحول عن أبيه البحتري ـ رحمه الله ـ أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري (ت ٢٨٤هـ) ضبط الأب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب اللبناني ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٣ ـ الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، الدكتور مصطفى عبد اللطيف جياووك ، الجمهورية العراقية ، وزارة الإعلام ، سلسلة دراسات (١٢٣) دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .

٤ ـ ديوان امريء القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ط٤ ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

٥ ــ ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، تحقيق : الدكتورة عزة حسن ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، إحياء التراث ، مطبعة هاشم الكتبي ط٢ ، دمشق ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م .

٦ ــ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق : الدكتور سيد حنفي حسنين ، مراجعة : حسن كامل الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م .

٧ ــ ديوان عبيد بن الأبرص ، شرح وتحقيق : الدكتور حسين نصار ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م .

٨ ــ ديوان عنترة ، تحقيق ودراسة : محمد سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م .

٩ ــ الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد ، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته الدكتور علي الجندي ، دار الفكر العربي ، القاهرة بلا تاريخ .

١٠ ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ط٤ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٢م .

١١ ــ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، منشورات : المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م .

١٢ — مجمع الأمثال ، الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني (ت ٥١٨هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الفكر ، ط٣ ، ١٩٧٢م .

١٣ — المطر في الشعر الجاهلي ، أنور أبو سويلم ، دار عمّان ، عمّان ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م .

١٤ — المفضليات ، أبو العباس المفضل بن محمد الضبّي (ت ١٦٨هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٦م .

الدوريات

١ — تجربة الأيام لدى المعمرين من شعراء صدر الإسلام ، الدكتور سامي مكي العاني ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، العدد : الثامن ، المجلد : الثاني ، الكويت ، خريف ١٩٨٢م .

٢ — الشعر الجاهلي مصدر من مصادر دراسة الجزيرة العربية وأحوالها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، الدكتور نوري حمودي القيسي ، مجلة آفاق عربية ، السنة الثانية ، العدد : الحادي عشر ، بغداد ، تموز ١٩٧٧م .

٣ — هاجس الخلود في الشعر العربي قبل الإسلام ،الدكتور محمود عبدالله الجادر ، مجلة آفاق عربية ، السنة : الحادية عشرة ، العدد : العاشر بغداد ، تشرين الأول ، ١٩٨٦م .